

## رَبِحِ الصَّائِمُونَ، وَفَازَ الْقَائِمُونَ

■ الشيخ حسين كوراني

من أبرز مفاتيح القلب في أدعية شهر رمضان:

«إِلَهِي رَبِحِ الصَّائِمُونَ، وَفَازَ الْقَائِمُونَ، وَنَجَا الْمُخْلِصُونَ، وَنَحْنُ عِبِيدُكَ الْمَذْنُوبُونَ. فَارْحَمْنَا بِرَحْمَتِكَ، وَاعْتِقْنَا مِنَ النَّارِ بِعَفْوِكَ، وَاعْزِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا بِرَحْمَتِكَ...».

ربح الصَّوم - على علو مرتبته - دون فوز القيام، رغم أن الصَّائمين والقائمين يشتركون معاً في «الإخلاص» و«النجاة» التي تلازمه.

المُلتفت، هذا التدرُّج من الرِّيح إلى الفوز بالإخلاص. طبيعيٌّ أن في «الرِّيح» و«الفوز» بعض ملامح الإخلاص وخطراته. إلا أنه بهما يُثبَّت فيستقر. قالت الصَّديقة الكبرى فاطمة الزهراء (عليها السلام): «... والصَّوم تثبِيتاً للإخلاص».

من هم الصَّائمون؟

نقرأ في مفتتح أدعية هذه الدَّورة الربَّانية -دورة الأشهر الثلاثة- «وبلَّغْنَا شَهْرَ الصِّيَامِ، وَلَا تَجْعَلْ حَظَّنَا مِنْهُ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ».

ليس الإمتناع عن الأكل والشُّرب، -وسائر ما يتحقَّق به شكلُ الصَّوم- إلا مدخلاً إلى الصَّوم الحقيقي.

\*\*\*

قد يُوَدِّي هذا المدخل إلى «التَّقْوَى»، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٨٢.

«التَّقْوَى» إقامة العدل في دولة النَّفس. «وفيك انطوى العالم الأكبر».

تتوقَّف إقامة «دولة العدل والقانون» في النَّفس على الثَّورة وإحراز النَّصر. التقوى توبةٌ وكَدْح، والتَّوبة ثورة، والكَدْح تواصلُ السَّعي والجهاد، ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الإنشقاق: ٦.

تبلِّغ الثَّورة مداها بالنَّصر المؤزَّر، والفتح المبين. يتحرَّرُ الثائر -التائب- من أسْر الحيوانية والغرائزية، وقيود «الكثرات» التي هي أوهام ثقافات الجهل والجاهلية، وأوهام عبادة أصنامها وفراعنتها والمترفين والملا وعاداتهم، لينتقل من ثقافة القشر والظاهر والعبودية لآلهتها الموهومين والمتشاكسين، إلى آفاق الحرِّية، والأمن النَّفسي والسلامة والإسلام.

\*\*\*

«الكثرات» توهُم الحقيقة الأصيلة في كثير من الظواهر. هي عالم الحيوان، وسجن «الإنسان» المشدود إلى بُعد

الحيواني، مُمعناً في أن يكون من الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ الروم: ٧.

لا عقل في البعد الحيواني للإنسان. فصل الإنسان وخصوصيته النطق «حيواناً ناطقاً».

بالعقل يتحقَّق الخروج من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان. إذا غيَّب الإنسان العقل استحال حيواناً صامتاً، بلا فكر ولا عقل.

عدوُّ العقل ونقيضه، الشهوات والهوى والغرائز الحيوانية. كلُّ ما يقوِّبها يُضعفه فيمرضه، أو يصرعه، أو يأسره، ويلغيه.

بمقدار غلبة العدو تكون الهزيمة. وبمقدارها يكون تغييب العقل، و«الخسارة». الإقامة على تغييب العقل إقامة على حال: ﴿صُمْ بِكُمْ عُمَىٰ فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة: ١٧١، والمآل: ﴿.. إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان: ٤٤.

\*\*\*

الصوم الحقيقي استجابة للنبي في استثارة دفة العقل «.. ويثيروا لهم دفائن العقول» في مسار ﴿.. أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الأنفال: ٢٤. بكسر العادة، وكف النفس عن الهوى والشهوات، تبدأ رحلة التوازن بين بعدي الإنسانية والحيوانية، لتثبيت حكومة العقل. بمقدار تعزيز العقل وتثبيت سلطانها يكون الصوم حقيقياً. تعزيز العقل بالصوم درجات، لأن كسر العادة وكف النفس درجات.

قال العلماء: أقسام الصوم ثلاثة: صوم العوام: (وهو الكف عن الطعام والشراب) - والعوام هم المقيمون على المعاصي، وإن كانوا في العرف من النخب - وصوم الخواص: (وهو الكف عن المحرمات كلها)، وصوم خواص الخواص (وهو الإعراض عما سوى الله تعالى).

يجد الصائم مس الجوع، فإن كان فقيراً حافظاً على ما سلم له من بعده الإنساني، وترسخت فيه روح القيم والمعنى، وإن كان غنياً غادراً قممنا ليكتشف بعض معاناة الفقير، فتنبض في قلبه مشاعر الإنسانية بوتيرة مختلفة.

\*\*\*

يشارك كسر العادة وكف النفس ومضات تعزيز العقل في التقاط مرآة القلب بعض ملامح الأحجام الحقيقية للنفس والآخر، والفرد والجماعة، والمذات الظاهرية والمعنوية، والدنيا والآخرة، وهو ما يتيح للصائم التعامل بطريقة مختلفة - وإن بمستوى الومضات والخطرات - مع عظمة الخالق ومحدودية المخلوق، فإذا الصائم أمام لمعات «الإخلاص» وبوارقه. بمقدار عمق «النية» وصقل مرآة القلب، وتدريب الجوانح والجوارح على حكومة العقل وحاكميته، يتحقق تحرير العقل من طغيان الغرائز فيربو بذلك ربح الإخلاص ويتراكم، لتكتمل ملامحه، وتتعمق أبعاده، فيثبت ويستقر، فإذا الصائم أهل لصوم الخواص، ويتعاظم إخلاصه ويترسخ، فيمنح وسام «خواص الخواص».

عمق النية، بالإسرار والتكرار، ودوام الغوص في جوهر الذات، والحفر في عمق الباطن. الإسرار، بحفظها من شوب الرياء السابق، والمقارن، واللاحق. والتكرار، بتعدد العبادات والإكثار. «كثرة تلاوة القرآن. كثرة الصلاة. كثرة الصوم. كثرة الذكر». ﴿قِيلَ مَا وَقَعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ آل عمران: ١٩١. مواصلة الحفر والغوص، بالإصرار في بلوغ غاية العبودية ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ النحل: ٥٣. ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الكهف: ٣٩.

صقل مرآة القلب، بصدق النية وحفظها من حجب النور، وحفظ النفس، فضلاً عن خطرات العجب حال العبادة، أو بعدها. تدريب الجوانح، بمراقبة طهارة السر، ورعاية أدب محضر الله تعالى، المعبر عنه بأدب المحاضرة. وتدريب الجوارح، بوقف القبض والبسط على طاعة الرب ومخالفة الهوى.

لا ينفصل الصوم الحق عن القيام. القائمون الفائزون. صائمون لم يقفوا على عتبة الكف بل قرنوا ربح الصوم بفعل القيام، وهو من الجامعية في السنم الأعلى ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ سبأ: ٤٦، ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ المائدة: ٩٧، ﴿وَطَهَّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعَ السُّجُودَ﴾ الحج: ٢٦.